الحركة الحضارية في الأندلس في ظل الأمويين ومنجزات الامراء والخلفاء :-

من المعروف أن فتح العرب للأندلس لم يكن احتلالاً عسكرياً، بل كان في جوهره حدثاً حضارياً هاماً امتزجت فيه حضارة العرب الفاتحين بالتراث الحضاري المتوارث لسُكان البلاد الأصليين والذي كان قوامه الحضارة الرومانية المشربة بعناصر من الحضارة القوطية ليخرج من هذا المزيج حضارة زاهرة كانت أرقى حضارة عرفتها أوروبا في العصور الوسطى، ولم يكن يضاهيها وقتئذ في تلك القارة إلا حضارة صقلية في ظل الحكم العربي الإسلامي. وما تجدر الإشارة إليه أن الفتح العربي للأندلس تم في عهد الوليد بن عبد الملك الذي بدأت فيه حركة الحضارة العربية الإسلامية تنمو وتترسخ دعائمها، وتُبشر بالازدهار الذي برز بشكل واضح بعد ذلك بقليل أي منذ مطلع العصر العباسي الذي لم يكن بعيداً عن عهد الوليد بن عبد الملك. وتبعاً لذلك، فيمكن القول بأن جيوش الفتح حملت معها بذرة الحضارة العربية الإسلامية المشرقية المطبوعة بالطابع الشامي، الذي ساد في عصر الولاة، بوصف هؤلاء الولاة كانوا يتبعون دولة اتخذت من بلاد الشام مركزاً لها، ولهذا كان من الطبيعي أن تتأثر الحضارة الأندلسية في هذا العهد بالحضارة الشامية في مختلف مظاهرها وهذا ما عُرف في المصطلح الأندلسي بالتقليد الشامي. وكرس عبد الرحمن الداخل حينما أقام الإمارة الأموية هذا الطابع، فهو أمير أموي نشأ في الشام، فرأى أن يجعل الأندلس امتداداً للشام كما كانت إمارته للخلافة الأموية في المشرق فالحياة الأدبية في عهده كانت صدى لحياة الشام الأدبية، فكان الشعر الأندلسي في هذه المرحلة محاكاة لأشعار المشارقة، يدل على ذلك ما وصلنا من شعر عبد الرحمن الداخل نفسه. كما أنه حرص على جعل قرطبة صورة من دمشق سواء في طراز مبانيها أو في ما جلبه من الشام من نباتات وأشجار مثمرة، وبنى منية الرصافة مشابهة لرصافة جده هشام وسمى قصر تلك المنية قصر الدمشق كما تقدم ذكره، وأهتم بجامع قرطبة محاكياً في ذلك آباءه في بناء الجوامع وزخرفتها، والذي تُظهر فيه المقتبسات عند الجامع الأموي في دمشق بوضوح. ومنذ عهد هشام الرضا بدأت مؤثرات حضارية مشرقية أخرى تتسرب إلى الأندلس، ولعل ذلك يعود إلى أن هشاماً كان يمثل البيئة الأندلسية التي أخذت تعمل على التحرر من التقليد الشامي، فدخلت في عهده المؤثرات الحضارية الحجازية متمثلة في وصول المذهب المالكي إلى الأندلس آنذاك، إذ أدخله زياد بن عبد الرحمن اللخمي، ولم يلبث أن انتشر بجهود يحيى بن يحيى الليثي ليحل محل مذهب الإمام الأوزاعي إمام أهل الشام، وإلى جانب هذا الاتجاه الديني الجاد، دخلت إلى الأندلس المؤثرات الفنية الحجازية، حيث وصل إليها الغناء الحجازي، ومن بين الأسماء التي

اشتهرت في الغناء وقتئذ المغنية المدنية (عجفاء) التي أثارت إعجاب الأندلسيين، فوضعت هي ونظراؤها نواة الحركة الفنية في الأندلس.

وخطت الحركة الحضارية في الأندلس خطوة كبيرة في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي يعتبر ذروة عهد الإمارة، فقد أعاد ترتيب الجهاز الحكومي وأجرى تعديلات في الوظائف العامة ومن أهمها خطة الوزارة، فقد قسمها على عدة وزارات، كل وزارة منها تختص بناحية من نواحي أمور الدولة ويتولاها وزير، كما هو الأمر في عصرنا الحاضر، وقد بلغ عدد هؤلاء الوزراء وقتئذ تسعة وزراء يجتمعون برئاسة الحاجب الذي أصبح يقوم بمهام رئيس الوزراء في عصرنا، وكانت هذه الاجتماعات تعقد في دار خُصصت لهم عُرفت بدار الوزارة، وخُصصت لهم رواتب قيل أنها بلغت ثلاثمائة دينار شهرياً لكل وزير، وأهتم الأمير عبد الرحمن الأوسط بالأمن الداخلي بخاصة في العاصمة، فجعل السلطات المتعلقة بأمن العاصمة قرطبة مثلاً، في يد عدة أشخاص بعد أن كانت مركزة في يد شخص واحد وهم:-

١- صاحب السوق:- ويختص بمراقبة الأسواق والنظر في المشاكل التموينية، وهي التي أصبحت وظيفة المحتسب فيما بعد.

٢-صاحب الشرطة العليا:- ويختص بالنظر في قضايا علية القوم.

٣-صاحب الشرطة الدنيا:- ويختص بالنظر في قضايا عامة الناس.
- صاحب المدينة:- ويشرف على المرافق العامة في المدينة، فكان يقوم بمهام المجلس البلدي في عصرنا الحاضر.

وفي عهده أيضاً، أخذت المؤثرات الحضارية العراقية تتسرب إلى الأندلس، ففي سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م قدم إليها المغني الشهير الحسن بن علي بن نافع المعروف بزرياب الذي دفع بالحركة الفنية فيها دفعة قوية إلى الأمام، ومع زرياب أنتقلت إلى الأندلس طريقة ترتيب مجالس الشراب والمائدة (الأتكيت)، وبعض أنواع الأطعمة المشرقية كالباذنجان مثلاً، فضلاً عن الأزياء وأدوات الزينة، ونبغ في عصره العديد من العلماء مثل عباس بن فرناس الذي كان متعدد الاهتمامات والمواهب، كما أجتذب بلاط نخبة من علماء المشرق مثل (الحراني) الطبيب وغيره ممن اسهموا في تنشيط الحركة العلمية، ويمكننا القول أن النهضة العلمية بخاصة والحركة الحضارية بعامة قد نشطت في عهد عبد الرحمن الأوسط واستمرت تشق طريقها بقوة وثبات

بالرغم من حالة الفوضى والفساد التي أعقبت وفاته إلى أن بلغت أوج نشاطها في عهد الناصر وابنه الحكم المستنصر.

فقد أهتم الناصر بالحركة الحضارية وبخاصة منذ إعلان الخلافة، فجعل قرطبة حاضرة عامرة على أن يُضاهي بها بغداد حاضرة الخلافة العباسية، وأبرز ما يُذ كر في هذا المجال هو إنشاءه ضاحية الزهراء التي جعلها مقر إقامته وبنى فيها القصور العديدة لسكانه ولرجال دولته وجعلها مقر الخلافة وزودها بكل جديد وثمين طريف من الأثاث والتحف، وأحاطها بالحدائق الغناء الواسعة والبحيرات الاصطناعية التي جُلب لها المياه من جبال قرطبة في أنابيب الرصاص بترتيب هندسي عجيب، فضلاً عن تزويدها بأنواع مختلفة من الأسماك، واجتذبت الحدائق مختلف أنواع الطيور، حتى أصبحت ضاحية الزهراء تحفة فنية رائعة.
وأما ابنه الحكم المستنصر، فقد فاق شغفه واهتمامه بالعلم، اهتمامه بأي شيء آخر حتى لُقب بالعالم، وقد شغف بجمع الكتب من مختلف المراكز العلمية في المشرق حتى ضمت مكتبته ما يزيد عن أربعمائة ألف مجلد، واستقطب بلاطه نخبة من علماء العصر من المشرق والمغرب وبخاصة من أفريقيا الذين فروا من حكم الفاطميين مثل إسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم وأمثاله، وإذا أضفنا إلى جهود الناصر والمستنصر في دفع الحركة الحضارية جهود المنصور بن أبي عامر في هذا المجال الذي أحتضن هذه الحركة ورعاها كما بنى ضاحية الزاهرة الشبيهة بالزهراء، لأمكننا القول بأن هذه الحركة بلغت في عصر الخلافة مستوى رفيعاً، الأمر الذي أضاف مأثرة أخرى من مآثر بني أمية في الأندلس، ولعل خير دليل على ذلك هو أن قرطبة بلغت في هذا العهد الغاية، فيُذكر العديد من المؤرخين أنه كان فيها (٢١٣٠٧٧) داراً لعامة الناس، و(٦٣٠٠) داراً للأكابر والوزراء والكتاب وكبار الموظفين ولرجالات الجيش، وكان فيها (٨٠٢٢٢) حانوتاً، و(٩١١) حماماً عاماً و(٣٨٧٧) مسجداً، وقيل (١٨٣٦) مسجداً، ويلحق بها (٢١) ضاحية، وفيها (٧٠) مكتبة عامة، وكان فيها أميال عديدة من الطرق المرصوفة، وتُضاء شوارعها ليلاً بالمصابيح، في حين لم تتمتع لندن وباريس بمثل هذا حتى بعد سبعة قرون من ذلك الوقت.

كما أهتم الأمويون بتنشيط الحياة الاقتصادية في دولتهم لتوفير الرخاء للشعب، ففي مجال الزراعة استصلحوا مساحات واسعة من الأراضي التي أصبحت أراضي زراعية، ووضعوا أنظمة مبتكرة للري، وأدخلوا أساليب وطرق الزراعة المتطورة التي كانت شائعة وقتئذ في المشرق، واستجلبوا العديد من أنواع الأشجار المثمرة والنباتات، فبالإضافة إلى التين والرمان، أدخلوا زراعة أشجار الحمضيات على اختلاف أنواعها والقطن والأرز وقصب السكر والزعفران وغيرها من

نباتات وأشجار المشرق، وفي مجال الصناعة نشطت في قرطبة صناعة الجلود حتى نال الجلد القرطبي شهرة عالية، ثم صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها من صوفية وحريرية وقطنية وكتانية، واشتهرت المرية بصناعة الزجاج والنحاس،وشاطبة بصناعة الورق التي دخلت إلى الأندلس في هذا العصر، وبلنسية بصناعة الخزف، وطليطلة بصناعة الأسلحة وبخاصة السيوف التي نالت شهرة عالية كالسيوف الدمشقية، ومالقة بصناعة حنظ السماك، وانتقلت صناعة تكفيت النحاس والصلب وغيره بالذهب والفضة وزخرفتها بالنقوش والتوريقات النباتية من دمشق إلى الأندلس واشتهرت بها العديد من المدن الأندلسية فضلاً عن صناعة الحفر على الخشب والعاج والزجاج الملون والتحف والتي منها انتقلت إلى بعض المدن الأوروبية.

ونشطت التجارة الداخلية والخارجية في هذا العهد، وبرزت اشبيلية في هذا المجال التي كانت تستورد الأقمشة من مصر وباقي أقطار المشرق، والرقيق الأسود والذهب من أفريقيا وغيرهما من منتجات تلك القارة، والرقيق الأبيض من أوروبا، وتُصدر القطن والزيت والزيتون، ومثلها مالقة وجيان اللتين كانت صادراتهما تشتمل على الزعفران والتين والسكر والرخام، وكانت حاصلات الأندلس تسلك سبيلها إلى الإسكندرية والقسطنطينية ومنها توزع إلى مختلف الأقطار، حتى وصلت إلى الهند وأواسطها، فضلاً عن نشاط حركة التجارة الخارجية مع كل من دمشق وبغداد ومكة.